

مرآة .. في قمر زجاجية !

قصته بقلم إبراهيم عبد الحميد محمود

ألست فضيلة ؟

وابتسمت حياء ثم قالت : أنا عذراء .. جارتكم القديمة .
- لهذا رأيت وجهك مالوفا .. حتى اني .. حاولت الكثير ولم
استطع أن أتذكر حتى الاسم .
وضحكت قائلة :

- وأهلك ؟ كيف حالهم ؟ وأين أنت الآن ؟ ..

وبعد خمس دقائق كنا نركب الباص ، وعرف كل منا الكثير عن
الآخر .. أنا خريج كلية في طريقي الى العمل ، وهي معلمة جاءت
الى هذه الدائرة لتنتظر زميلتها الا ان الاخرى تأخرت .. أهلها انتقلوا
الى مكان قريب من دارنا الجديدة ولكن لا نعلم .. يا للسنوات ..
تسع مضي ، كنا قبلها نلعب معا في شارعنا الصغير المسود النهاية
ونقرأ معا ، وقلت لها :

- ما رأيك لو التقينا مرة أخرى ؟

- وما الداعي ؟

كان سؤالاً شرفياً منقنا .

- لا شيء .. سوى أن نسترجع ذكريات الصبا .

- فقط هذا ؟

وأردت أن أقول : وأشياء أخرى .. فقلت :

- ليس هذا فقط .. انما بصراحة .. ارتاحت نفسي عندما رأيتك .

- والناس ؟ وأهلك ؟ وأهلي ؟

(« عدنا الى اللبنة القديمة ؟ »)

- لا اظن ان الجلوس في سيارة مصلحة يدعو الى الريبة ..

ثم ان جيرتنا ..

- حسنا ، سافكر في الموضوع .

وجاءت ابتسامتها في الموعد الملائم تماما .

- ومنى أعلم النتيجة ؟

وبسرعة حددت الموعد .. الخامسة والنصف مساء الغد .

فقلت لها :

- سأقف اسبوعا .. كل يوم في الخامسة والنصف .. وأوقت

ساعتي على الإذاعة .

- لهذا الحد ؟

- لك أن تظني ما تشائين .. انما بالنسبة لي .. لقد رسمت

واحة طيبة سنجتازها معا .. وليس في حياتي واحة اخرى .

- وقريبك تلك ؟

(« يا للملونة ! »)

- انتهى امرها .. كنا مراهقين وقد درسنا عن المراهقة الكثير .

وذهبت .. يا رب السموات .. ألا بد من الدلال هكذا ؟ من اظهار

الصد والتمنع ؟ لماذا ابتسمت لي وسرت معي .. يا ابنة الاوادم ؟

في جيبني نصف دينار فقط ، لاحتفل على الطريقة القديمة ..

وفي السادسة مساء خرجت من مقهى الاعتيادي راحلا الى النهر

العظيم ، وتلفعت بمعطفي العتيق وأنا اجلس على إحدى دكات الدرج

الكونكريتي الذي يحاذي السدة القريبة جنوبياً من جسر الاحرار ..

وبدأت أحسني صرفاً .. وشعرت بالفتيان سريماً .. (« أريد أن أنسى

الأمي .. أريد أن أنسى حتى الفرح .. يا رقماً قميماً في الوجود ..

الك حق في الحب والسلوى كما تفعل الارقام الاخرى المليئة بالامل ..

يا شاة من القطيع الالهي .. » وضحكت .. (« نحن قطعان .. خراف

.. كانت الشمس كريمة تماما ، يرغم الهسواء الجاف ودرجة
الحرارة المنخفضة ، وفيما دلف الصديق الى غرف المراجعة المكتبية
الكثيرة ، ارتضيت لنفسي اجاباً من المدخل الرئيسي للدائرة .. أقرب
المارين ، ساعات .. دون كيل .

بعد دقائق ، صرفت النظر عن الاهتمام باللحي الحليقة ، وأخذت
أهتم بالمساحة التي يشغلها شعر الوجه .. في الوجه .. أقرب وجنات
الرجال باهتمام متحسناً وجنتي في نفس الوقت .. ان معظمهم ينتزع
الشعر بالمنقاش عن الجلد .. بعكسي ، فانا أحلقه جميعاً حتى أكاد
أصل الى العيون وهذا ما يسبب لي أن أفق كل يومين أمام المرآة لآحلق
وجهي خشية أن يفره الشعر ، وبالتالي أضيح المزيد من وقتي ..
وبدأت أهتم بتفصيل العباءات التي ترديها بعض النسوة .. لاحظت لأول
مرة ان العباءة مكونة من قطعتين تخاطان ببعضهما في منتصف العباءة
تماماً وبصورة متوازية !

تركت كل ذلك الى ملابس السافرات .. وجدت ان معظمهن قد
رفعن الثوب عن الركبة بعدة بوصات وان بعضهن قد شوهن ناودهن
بالكعب العالي ، فجأة .. لمحت شبح ابتسامه عسلى شفني فتاة ..
يا لله .. يا ملائكة الرب جميعاً . ساعدوني لان أتذكر .. ودفعت يدي
بعنف ماراً على شعر رأسي : لا فائدة .. لا أتذكر .. وانسعت البسمة ،
ورأيته تخطر أمامي مجتازة الممر الى الشمس المظلة على ساحة الدائرة
الإمامية ، غامرة نصفها القريب الى الحائط .. والتفت ورأيتي لاتأكد :
لم تراها تبسّم ؟ ربما كانت تحلم ، ربما تذكرت نكتة ما ، ولكن البسمة
استمرت ولا أحسد يقف سواي ! .. عجيب .. أنراها مغطّنة ؟
كلا ، كلا .. هذا الجسم الملقوف بعناية تامة ، وهذا الوجه الجميل
المستدير نصف المتلوى لا يتبسّم لاحد غيري . وعادت مارة من أمامي
لتجلس على كرسي عتيق قرب باب الدائرة واضمة ساقاً على ساق ..
كان الرداء قصيراً حتى بانث الركبة .. وتذكرت ياسين .. آه لو
كنت في جرائه .. الملايين .. أنشأونا جنباً نستحي ، واستمرت الفتاة
تنظر ناحيتي وتبسّم .. يا لالهة الجوس .. ماذا أفعل ؟ ليست لي
الشجاعة الكافية حتى لان أكثر ، حتى ان اظهر أسناني التي تحب
الدخان .. وأردت وجهي عنها مشعلاً سيجارة وأنا أفكر بحسرة ..
لا بد انها تعرفني لتبسّم هكذا مشجعة ، والا لكانت بلهاء ، ولكن ..
لا لا .. ليس في تصرفاتها ما يدل على بلهها .. انا الإبله .. لاني
لا أستطيع حتى ان أحببها بكلمة مناسبة .. تبا للجدران الصفيقة
التي وضعت القدر بيننا في شرقنا المتعب .. (« أين ذهبت السنوات
الاربع التي طال فيها لسانك في الكلية .. كأنها حلم .. كنت لا تترك
فتاة من معارفك الا وتحجزها ساعات طويلة في النادي هاجزين
الدروس ، تتحدثان عن كل شيء .. حتى تلك التي تزوجت العجوز
الدميم ووضعت الاحمر .. كانت قلعة منيعة ، ولكنك اكتسحتها بطيبتك
ورعونتك وكلماتك الساذجة المتشاقفة .. لم تكن ندلاً في شيء .. كنت
بطلا بدوياً رائعا ، ما لنا ولهذا .. ذهب كل شيء .. ها هي امامك
صورة اخرى .. استعمل لسانك يا فتى .. لا أستطيع .. لا أستطيع ..
اكاد انفجر » . والتفت اليها :

كان في عينيها حنان يبتلع كل شيء .. حتى الأمي نفسها . وقامت
من مقعدها بهدوء سائرة نحو الباب ، وما ان اختفت من ناظري حتى
هتفت أعماقي .. ليسقط ألف صديق .. وسرت وراها حتى دانيتها
ثم قلت لها وأنا أحس بانني غير عابىء بشيء : صباح الخير ..

مثلته عندما كنت في الثانوية والجامعة وتدرت عليه عندما أصبحت مدرسا بالاشتراك مع طلبتي .. استلطف هذا الرجل .. اناني جشع ولكنه غير مفلح .. انه صريح كعاشق ، هو يحب ماله ويكشف عن حبه له بصراحة مذهلة .. قبله أخرى ايها الزجاجة البيضاء كحورية .. قبله أخرى .. ما أحلى شفيتك الزجاجيتين .. لا لا .. انهما باردتان كاسفلت هذا الدرج .. لاقبل الاسفلت اذن فلعل فيه شيئا من الحرارة التي أرسلتها الشمس صباحا .. انه يحرق معدتي .. العرق اللامع من اللعين .. ليتها كانت معي .. كانت الأخرى تجلس تحت أقدامنا كقطعة اليقة ودودة .. وأنا لا أرفب إلا عينيها .. يا للعينين الطيبتين .. انهما تبرزان لي من الضفة الأخرى .. تشعان وسط ظلامي التنفس .. لا تعاتبيني .. لا تسأليني شيئا بحق من تحبين .. لا لا .. انا لا أفعل بنفسني شيئا .. كل ما في الأمر أنني مخمور قليلا .. أريد أن انسسى الدنيا .. ألا توافقيني ؟ انا لا أحب « فضيلة » أبدا ولن أذهب إلى موعدها ، أنا أحبك أنت .. أنت فقط .. أنت الصورة الثانية من حياتي .. تشربين الشاي ونحن نشرب العرق .. ألسنت موافقة ؟ عرق مقابل الشاي .. أنا أحب الشاي أيضا .. من يديك بصورة خاصة .. ولكن اللثام لا يقبلون .. انهم يتدخلون حتى فسي طريقة مشيتي الخاصة .. انهم ، يا للعدايب .. يحبونني على طريقتهم ، يريدوني أن أكون لهم فقط .. أمي وأبي لا يريدانك .. يعتقدان أنهما أرقى منك .. هه .. أرقى !؟ آه لو كنت مالكا أجنحة عريضة بيضاء .. اذن لحمثك كالنسر وطرت بك إلى الفرفة السابعة المسحورة رغم تحذيرات السلطان صاحب القصر ولامتصصت كل وحدتك ولفسلنا بدمعنا كل الآمناء .. يا عزيزتي الساحرة العينين .. أنت تفنين بشكل جيد .. تحبين الموشحات .. وأنا أيضا .. وتناودين معها وأنا أحفز كل أعطاسي « الكون ألى جمالكم مشتاق .. مشتاق .. والقلب إلى لقاءكم » لا لا .. ليست هكذا .. كيف هو الموشح الاغنية ؟ أنشديها بالله عليك .. هزي رأسك هذا أندلسيا .. هكذا .. أجل هكذا .. آه لو كنت ثريا .. لو كان لي مورد ثابت .. لاخذتك إلى « كابرى » لاتحدى بك دوقات المال ومال الادواق ، لصفمت عدة عجايز على مؤخرابهن وأنا أريهن هديتي الحلوة للعالم ، لشددت شوارب تحمل الغلايين وأنا أقول لأصحابها : افتحوا أعينكم جيدا أيها السخفاء فانا اصطحب الدنيا

الله المليئة شحما » وبصفت ما وضعته في فمي ثانية .. « في جيبي مائة فلس .. لماذا لا أشتري برتقالة على الأقل .. في رجلي ثقل لا أدري كنهه ، فانا لم أغص بعد .. دعنا من ذلك .. صهفاء صرنا .. أحسن بكثير » .. ونزلت إلى النهر « لا لا .. لنمزجها بالماء » وملاّت الزجاجة حتى الفوهة ثم « خض الزجاجة قبل الاستعمال .. يا لهم من عباقرة هؤلاء الصيادلة .. صيادلتنا اليواصل » وخضصت القيتنة .. عجيب !؟ مزة سوداء تختلط بالسائل الحليبي ، وانتظرت إلى أن يسكن الرمل الذي بدأ يركد في الاسفل « الحياة تختنق بلا قمر ، والوجود لا مجد لحد البشاعة .. الليل مقلق رهيب بأشباحه التي تنهش كحيوانات جائعة أميبية والدماء تسيل في العروق يوميا باوتوماتيكية مفجعة عشرات .. مئات الأميال دون نهاية .. دماغك يركض .. مرة في فليك ، مرة في بطنك .. في رأسك ، وتظل تعلم بافتصاب شبح ما .. نحاول أن تهدأ وننام فلا نستطيع .. أنت بلا أمنية ولا مصير .. ولا حتى مطعم في خير أو شر .. لسنت رقما كالارقام التي تدب على الأرض ضاحكة .. أنت انسان بلا تاريخ .. أنت التساريخ كله .. فليسقط العالم .. قالها صديق ذات مرة .. أجل فليسقط العالم ، ليس هناك من شيء يستحق أن تبذله له .. التيجان على العروش والتصفيق يتصاعد والمسيح مصلوب دائما والخطيئة مختبئة تحت المسوح وخراف الله يذبها الرعاة .. هللوا .. هللوا .. كل من عيها فان .. أجل .. متى يحل الغناء .. يا لها من حفلة ممتعة ، لماذا نعيش هكذا متممين ، جئنا مرغمين ونموت مرغمين ليأكلنا الدود ويفنأ أميننا .. أفروديت مثل خيلو القزم تماما .. وماغي يكاد يتفلق أفكارا .. أتمنى لو اضعه بين لوحى تلج ليبرد .. لو أنفيا شهادتي .. لو لم أفرا أي كتاب .. لو كنت أميا أصلا ، مقاتلا أكل لحوم البشر بلذة وأصرع بحربة مسومة ، ليأكلني اهلي وأصدقائي فسي الغابة .. لو كنت كالفولا .. عظيما أسحق من أشاء .. لا لا .. لقد كان مجنوننا ولست أحب المجانين كثيرا .. لا أريد أن أقتل أو أحرق ، أريد أن أحب فقط بدون منقصات .. لو كنت كروزو فقط ، بعيدا عن كل هذا العالم الدنيء المغفر حتى بضعته وجازه وحضارته .. لو كنت كروزو بلا رجوع أو ابن يفتان بلا عودة .. لماذا أنام هكذا ؟ أصرخ بصوت عال لا يصل إلى أحد .. تماما كذبذبات لا تدرکہا الاذن البشرية لانها فوق التردد .. ما قيمتها ان كانت مجمولة لدي .. لا أسمعها ، لا أعياها ، لا أفهمها .. لست عائشا كالأحياء .. لا ميتا كالأموات .. أخاف الاثنين معا .. لو كنت في العدم .. لو كنت في العدم .. لن أدرك العدم أبدا .. ها ها .. ليس شجاعا الا الذي يستطيع الانتحار بنفسه .. بيده ، كم هو عظيم ذلك النفذ للهارى كاري .. انه يموت وراء فكرة وهذا شيء حسن .. انما أنا ، اذا مت فمن أجل ماذا ؟ انني عائش .. مجرد عيش .. على الهامش تماما .. لا أصدق أن أحدا يستطيع ان يحبني كما أريد .. آه لو أستطيع ان انزع دماغي كما انترع بنظوني مثلا ، لو أستطيع أن أعظ الناس بهوء ودجل وأخذ دراهمهم وتصفيقهم واقتني بقرة متصايبه وأشرب الفرموث وأدخن البايب والسيجار وأقرأ قصة بوليسية وأتملى في التلفزيون وأقضي ساعات أفكر في ربطة العنق وسهرة الليلة .. او على الأقل .. اشتغل عاملا .. بناء ، أو فسي مقهى او اي عمل لا عقلي او لا موصوف .. لا يتطلب الا شخيرا ربما في الليل بعد أن يهد التعب كل اطرافي .. ما العمل ياسييدي ما العمل ؟ لست أدري ولا الآخرون .. أيضا الآخرون ؟ كلمة مزعجة حقا ، اخترعها كارهوها .. اننا نتعذب حياتيا .. انسحاق ، دجل ، شتائم ، حسد ، بغض ، عنف ، فساد .. يا رب : لم خلقت الانسان لتعذبه ولم تمنه لتعذبه أيضا ؟ أنت أعرف بذلك من أي بشر ولكنسي احاول أن أصل إلى شيء يريحني ، فهل يكفيك عذابى أم ان هناك حفلة سمر أخرى مع أبي نؤاس ونيرون وغاندي .. لست أريد ان اقتني بطاقة بحق السماء .. أريد أن انام بهوء .. دون يقظة ..

اطلب منشورات

دار الآداب

في الأردن

من

المكتب التجاري

لصاحبه محمد موسى المحتسب

القدس - تلفون ٤٤٦٥

عمان - شارع الملك حسين - مقابل بنك انترا

وأخذت رشفة .. آه .. بدأت الامور تسير على ما يرام .. أجل أجل .. يقول الهرباغون .. كل شيء سائر بنظام .. هرباغون ؟ لقد

أدعو سوى العزاب .. لكي أرقب سخاناتهم تذرف حاسدة وألسنتهم
تندلق مباركة .. تعالي .. زجاجتي .. تعالي .. لماذا لا نؤجل القزام
هذه الليلة .. لن نفكر في مشاهد ما .. أنا أحبك أيضا .. لا لا ..
لا أحبك .. ماذا تقولين ؟ لست أسمعك جيدا .. أعلى رجاء .. فقد
ذهبت العينان الزرقاوان من الضفة الثانية .. أجل .. اخفتنا تماماً ..
لقد حدثتها طويلاً فاقتنمت على ما يبدو .. أجل أجل .. تكلمي ! ..
تقولين .. أنت .. ماذا ؟ تحب ؟ لم اسمع هذيانك جيدا ؟ لك الحق
كل الحق .. وليس ألا الحق .. وسأقول الحق كسل الحق .. ولا
شيء غير الحق .. اسمعي جيدا .. انصتي وشاركي خراب الماء وحصاك
ورملك الاسود القابع مع نساك الحلبي .. يا ليل يا بو الليالي ..
عنتر وعبلة بالجسر على عناد ستوتة .. ها ها .. صوتي جميل ..
ها ها ها ..

وصفقت حبيبات الرمل من جديد وهي تتراقص في الزجاجاة ..
وجرعت ما تبقى .. « وأحبها .. وتحبني .. وتحب ناقتها بعيري ..
لا لا .. وتحب ناقتها بعيري .. ما أجمل الشعر ! .. كيف ؟ واحبها ..
ونحبو .. ني الحياتو .. الحب .. الحبو .. الحياتو .. ماذا تريد ؟
لست أملك شيئاً .. لست مليونيراً ؟ انه يدفعني بعنف .. لماذا ؟
ماذا فعلت لك ؟ لا نقود لدي ؟ ارجوك .. واحبها .. كن رقيقاً ..
لنتفاهم .. يا اله الكون لا تهددني .. لا تسدفعني .. كن رجلاً ..
لا أعرف السباحة جيدا .. خذ معظفي .. أنا مسكين مثلك .. فتش
جيوبي جيدا .. لا تريد ؟ .. لم أقل لك الا الحقيقة فلماذا أتعبت
نفسك هكذا ؟ .. لا تذهب .. فلت لك تعال .. أجل تعال .. انسا
أشرك لانك تركتني بأمان .. ساعدني على صعود الدرج .. لا ..
لا تذهب .. عندي درهمان .. أشرك .. الان سأذهب الى أمي ..
هاك الدرهمين وابحث عن ثري تسرفه .. حدثت ، انك جديد في
المهنة .. وداعاً فالطر بدأ ينهب بضرورة العودة .. وداعاً ..
العراق - مدينة الدغارة باسم عبد الحميد جهودي

معي .. أتذكرين يوم ذلت لك اني اذهب الى الكباريات الفريسة
أحياناً .. لقد هزرت رأسك بأعجاب ظاهري ، وملات فمك الرائع مطة
استهجان وأتجهت اذناك الصغيرتان الايفتان الى فم أختك بطريفة
أضحكتني ، أعلم جيداً انك تفشارين علي .. وأعرف بالضبط انك
لا تعرفين تماماً ماذا نحبين في .. مسقيلي الفامض أم نظارتي السوداء ..
جسمي الاعتيادي أم دماغي الذي يكاد ينفجر ؟ حديثي الفارغ عن الادب
أم لهيب الشمعيرات البيض الذي يكاد ان يشعل رأسي .. أعلم جيداً
ان الكل يعرفون قصتنا ، وكلهم حافدون .. هكذا أظن .. هكذا
اعتقد .. كلهم حافدون علي وعلى .. أنا لا اكرههم ولكني ضجر من
الحاحهم اللثيم « متى ايها الصديق ؟ » لا متى الان .. الان الفناء ..
لانا .. أخشى ان نفني دون ان المس عينيك الزرقاوين بيدي ..
أخشى أن أموت دون ان اداعب شعرك القطني اللعين .. أخشى أن
اذهب دون أن يجزي ساعدي على خصرك ويداعب لساني الممزوج
بالنيكوتين شفتيك الملونتين بالوان الطيف الشمسي .. اننا بريئان
تماماً .. بريئان من الدنس .. نؤمن بترهات قيس بن الملوح ، ولكن :
الى متى سيستمر كل هذا ؟ هل ستصبرين الى أن يفور المال في جيبي ..
اصبري .. والا فانا لا أسمح للورد سخيف ان يخطفك مني ..
سأقتلكم معا .. ثم أقتل نفسي بعد ذلك .. ها ها .. لن يستطيع
القانون ان يعاقبني بعد ذلك .. بعد موتي .. سأقتل نفسي بعد
ذلك .. هكذا أراد الهر باغون عندما سرفوا كنزه .. كان المسكين يحب
كنزه .. وانت كنزي .. ولذلك .. أنا غيور جدا يا فتاتي .. غيور
من النخاع الى القدم ، اصبري قليلاً ولا تكوني عصرية كثيراً ، فانت
تحبين الموشحات وأنا أحبها أيضا ، سيمتليء جيبي بالمال .. سأسافر
الى كسرى وأقتل جنوده امام عينيه كما فعل المقداد الكندي .. احلام ..
لا لا ليست احلاماً .. سأقابل كسرى جديداً .. سيمتليء جيبي
بالمال .. عندها يسكت الجميع عند رنة الدينار المختلط بعرق دماغي ..
سأخطفك أولاً الى البصرة .. ويأتي الاصدقاء العزاب لوداعنا .. لن

صدر حديثاً عن دار الآداب :

المعقول واللامعقول في الأدب الحديث

تأليف كولن ولسون

ترجمة أنيس زكي حسن

دراسات هامة رائعة عن تيارات الفكر الحديث في الأدب والفن ، بقلم كاتب من أشهر كتاب العصر

الثمن ٤٥.٠ ق. ل